الفصل الثانى

النعم الثلاث

تشير النقطة الثانية الى النعم الالهية على الانسان .. والنعم الالهية لا حصر لها وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله : « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » (١) ، ولكن حينما نتصفح أصولها فى القرآن الكريم نجدها تنحصر فى ثلاث نعم رئيسية تتفرع منها كل هذه النعم التى لا تحصى وهى :

١ ــ خلق الانسان على هذه الصورة جسدا وروحا وتمييزه عن بقية المخلوقات .

٢ ــ تسخير ما فى الكون لمنفعته ومتعته .

٣ ــ هدايته بالتعاليم الدينية التى تجعله يعيش على اكمل صورة ممكنة بحيث يمكن الانتفاع بمواهبه وامكاناته وجزاءه على ذلك بالنعيم المقيم فى الآخرة .

النعمة الأولى ــ الانسانية :

خلق الله الانسان مميزا عن باقى المخلوقات من جماد ونبات وحيوان وهى نعمة كبرى اختص الله بها الانسان . فالجماد مثلا لا ينمو ولا يحس ولا يفكر ، والنبات ينمو ولكن لا يحس ولا يفكر ، والحيوان يحس ولكنه لا يفكر . أما الانسان وحده فهو الذى ينمو ويحس ويفكر ومنحه الله الأخلاق والعواطف وهداه للايمان ولذلك

---

(١) ابراهيم : ٣٤

جعله وحده اهلا للتكليف والسيادة على الأرض . يشير القرآن الى هذه المزايا بقوله « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (١)، وقوله : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا** » (٢) اى قبل أن يحمل أمانة التكليف .. وللتكليف معنيان متناقضان . تكليف يقصد به الاذلال .. وتكليف يقصد به التشريف ..

الأول .. نابع من الاستبداد والغطرسة ..

والثانى .. نابع من الاحترام والثقة ، فمن النوع الأول استبداد الحاكم الظالم بشعبه فيفرض عليه من القوانين ما يجعله مسخرا لخدمته أو استبداد السيد بعبده . الثانى كتكليف رئيس الدولة احد الأفراد بتشكيل الوزارة أو تكليف الشعب احد افراده بالقيادة السياسية أو العسكرية أو الدينية . فهو تكليف تشريف نتيجة لثقته وحبه وهو المعنى المذكور فى الآية لعلمه سبحانه وتعالى أن الانسان جدير بالتكليف والتشريف فهو الذى خلقه وهو اعلم به لأنه لو لم يكن اهلا لهذا التكليف لكان معنى هذا انه يكلفه بما لا يستحقه أو بما هو فوق طاقته وهذا لا يجوز بالنسبة لعدالة الله . ويقول سبحانه « **هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا** » (٣) ، ويقول : « **والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » (٤) ، ويقول « **ألم نجعل**

---

(١) الاسراء : ٧٠ .
(٢) الأحزاب : ٧٢ .
(٣) الانسان : ١ ــ ٣ .
(٤) النحل : ٧٨ .

له عينين . ولسـانا وشفتين . وهديناه النجدين » (١) ويقول : **« الذى احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »** (٢) ، ويقول : **« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسـونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله احسن الخالقين .»** (٣)، وقد اختاره ليكون خليفته فى أرضه فيقول : **« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ..»** (٤) ، وقـد كرمه الله بأن جعله محل النفخة الالهية فيقول : **« واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له سـاجدين . فسـجد الملائكة كلهم أجمعـون »** (٥) ، فالسجود لآدم لم يكن للانسان جسدا وانما لأنه مستقر النفخة

---

(١) البلد : ٨ ــ ١٠ .
(٢) السجدة : ٧ ــ ٩
(٣) المؤمنون : ١٢ ــ ١٤ .
(٤) البقرة : ٣٠ ــ ٣٤ .
(٥) الحجر : ٢٨ ــ ٣٠ .

من الروح الالهية وهو تكريم ليس بعده تكريم ولعل من الاشارات اللطيفة الى عظمة الانسان قوله تعالى « **تبارك الذى بيده الملك** » (١) وقوله : « **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء** » (٢) ثم قوله مبكتا لابليس « **ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى** » (٣) ويد الله فى هذه الآيات كناية عن القدرة ولكنه اشار الى الملك باليد والى الملكوت بيد والى الانسان بقوله « **لما خلقت بيدى** » وهذه اشارة الى عظمة الانسان بالنسبة للملك والى الملكوت . هذا بعض البيان عن النعمة الأولى .

***

النعمة الثانية ــ التسخير الكونى :

أما النعمة الثانية التى تعدل هذه النعمة فهى انه لم يخلقه مميزا عن باقى المخلوقات فحسب .. وانما سخر له ما فى الكون كله ليكون سبيل وجوده فى عمره المقدر له على هذه الأرض وقد اجمل ذلك فى قوله تعالى : « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » (٤) ، وقوله : « **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه** » (٥) ثم اشار الى تفصيل ذلك فى آيات اخرى كقوله : « **الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم** » (٦) ، وقوله : « **وهو الذى انشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ،**

---

(١) الملك : ١ .
(٢) يس : ٨٣ .
(٣) سورة ص : ٧٥ .
(٤) البقرة : ٢٩ .
(٥) الجاثية : ١٣ .
(٦) البقرة : ٢٢ .

انـــه لا يحب المسرفين • ومن الأنعـــام حمـــولة وفرشـــا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشـــيطان ، انه لكم عدو مبين • ثمانية ازواج ، من الضـــأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل ا الذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشـــتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم ان كنتم صادقين • ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ، قل ا الذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه ارحام الأنثيين »(١)، وقوله : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » (٢) ، وقوله : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وســـخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار » (٣) ، وقوله « والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون • وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (٤) ، وقوله : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها اثاثا ومتاعا الى حين • والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم من الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » (٥) ، وقوله : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها ســـبلا وأنزل من الســـماء ماء فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى • كلـــوا وارعوا انعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » (٦) ، وقوله : « والسماء

---

(١) الأنعام : ١٤١ — ١٤٤ .
(٢) الأعراف : ١٠ .
(٣) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣ .
(٤) الحجر : ١٩ ، ٢٠ .
(٥) النحل : ٨٠ ، ٨١ .
(٦) طه : ٥٣ ، ٥٤ .

بنيناها بايد وانا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون » (١)، وقوله : « **أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشـــاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شـــجرتها أم نحن المنشئون »** (٢) ، وقوله : « **والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان »** (٣) ،

هذه بعض الآيات التى تشير الى نعمة تسخير ما فى الكون لخـــدمة الانســـان فى القرآن الكريم تذكيرا لنعمة الخالق عـــلى بنى آدم ، ومع ذلك فلم تتركه تائها حائرا يبحث عن سر هذا الوجود ومن أبدعـــه بل هداه اليه وقرب طريقه فى البحث عنـــه فأخبره بوجوده سبحانه وتعالى وعرفه به فى كتابه ليستقر على الايمان قلبه فلا يتزعزع أو يضل فى متاهات الفلسفة .. ومن هنا ندرك نعمة الايمان للمؤمنين .

***

النعمة الثالثة ــ الهداية الدينية :

أما النعمة الكبرى فهى الهداية الدينية لأن هاتين النعمتين السابقتين لا قيمة لهما مالم يتكاملا بالهداية الدينية فيكونان بذلك الانسان المثالى الذى يحيا حياة مثالية بقول تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »** (٤) .

---

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ . (٢) الواقعة : ٦٣ ــ ٧٢
(٣) الرحمن : ١٠ ــ ١٢ . (٤) المائدة : ٣ .

وشاءت رحمة الله بعباده ألا يسوق هـذه الآية كخبر مجرد من الدليل ولكنه يعطينا الدليل الواقعى والبرهان المنطقى الذى لا يتطرق اليه الاحتمال على صحة هذا الحكم فعن دليل الواقع يحدثنا القرآن عن أخبار الأمم السـابقة ومـا أحاط بها من الخسف والعذاب لما كذبت رسلها لتكون لنا العبرة مما حدث لهم يقول لرسوله **« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »** (١) ، فالرسول كان حريصا على نجاة قومه لعلمه أن سعادتهم فى الدنيا والآخرة لا تكون الا باتباعهم لما أوحى اليه وكان يضايقه اعراضهم عنه وعنادهم له فكانت مواساة القرآن فى ذكر قصص من سبقه من المرسلين فيقول : **« وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، والى الله ترجع الأمور »**(٢) ويقول : **« وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم ابراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير »** (٣) ، ثم يعطينا العبرة لما حدث لهم فيقول : **« انا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية »** (٤) ، ويعقب القرآن الكريم عـلى أخبـار الأمم السابقة فى سورة الشعراء بقوله : **« ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين »** (٥) فيقول فى قصة موسى وفرعون : **« قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ، ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال**

---

(١) هود : ١٢٠ .
(٢) فاطر : ٤ .
(٣) الحج : ٤٢ ــ ٤٤ .
(٤) الحاقة : ١١ ، ١٢ .
(٥) الشعراء : ٨ .

رب المشرق والمغرب ومـا بينهما ، ان كنتم تعقلون . قـال لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشىء مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصـاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » (١) ثم يعقب القرآن بعد ذكر نهاية القصة بقوله **« وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثـم أغرقنا الآخرين . ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين »** (٢) ثم يذكر قصة ابراهيم عليه السلام وصراعه مع قومه ومحاولة هدايتهم الى دين الله وهم معرضون ثم تصوير ما يلاقون من العذاب فى الآخرة وما يظهرون من الندم اذ يقولون **« فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين »** (٣) يوم لا ينفع الندم يقول القرآن **« واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »** (٤) ثـم ينتهى الحـوار بذكر هـذه الآية **« ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين »** (٥) وكذلك قصة نوح وعاد وثمود ويختم قصتهم بهذه الآية .. وهذه الأخبار القرآنية تذكير لنا وتحذير لنعلم قيمة الدين واهميته وان فى اتباعه السعادة وفى الاعراض عنه الشقاء والدمار .. وقد يحلو لبعض المتحذلقين ان يقول ان هذه الأخبار القرآنية لم تذكر فى كتب التاريخ فنقول لهم ان كنتم تؤمنون بالقرآن فلا شك فى صـدق اخباره وان لم تؤمنوا

---

(١) الشعراء : ٢٣ — ٣٥ . (٢) الشعراء : ٦٥ — ٦٧ .
(٣) الشعراء : ١٠٢ . (٤) الشعراء : ٦٩ — ٧٤ .
(٥) الشعراء : ٦٧ .

فنحن نحيلكم الى ما رواه التاريخ بكل تفاصيله فى قصة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام فحينما بعث الرسول بالهدى ودين الحق كان قومه يتمتعون بالنعمتين الأوليين وهما نعمة الانسانية ونعمة التسخير ولكنهم لما حرموا من نعمة الهداية الدينية كانت حياتهم على الصورة المنحطة التى دونتها كتب التاريخ ، والفارق واضح بين حياة الجاهلية وحياة الاسلام فما الذى حـــول حياة هؤلاء الأجلاف من الظلم والفساد والكبر والانحراف والهمجية الى الحياة المشرقة الوضـــيئة السامية التى بهرت العالم فى حينها ولا تزال تبهره حتى الآن ... لم يجد فى حياتهم شىء الا هذا الدين وهذا الرسول الذى بلغ رسالة ربه ولقد قاوموها أول الأمر أشد المقاومة لما فيها من تغيير شامل لحياتهم وطرق معيشـــتهم ولكنهم بدأوا يؤمنون بها شيئا فشيئا لما بدا لهم من سموها وجمالها وأصـــبح منهم هؤلاء الصحابة الأجلاء الذين يشرف تاريخ الواحد منهم أمة كاملة فهل بعد هذا الدليل الواقعى الذى دونته كتب التاريخ يبقى مجال لمكابرة أو جدال ؟ وبعد هذا الدليل الواقعى يعطينا القرآن الدليل المنطقى الذى لا يتطرق اليه احتمال فيقول : « **ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصـــارا وأفئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** » (١) فالقرآن يوضح بصريح العبارة أن نعمتى الانســـانية والتســـخير لا قيمة لهما ولا جدوى منهما ان لم يتكاملا بالنعمة الدينية والهداية السماوية وأن الأمم السابقة كانوا يتمتعون بالنعمتين : نعمة التمكين فى الأرض ونعمة الانســـانية ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا ولم يوصـــلهم للسعادة والفلاح وهنا يجرنا الحديث الى ماهية الدين واصوله .

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .